

## المحاضرة (١)

### تمهيد في الحياة الادبية وعوامل نهضتها

انتهت الحياة الادبية والفكرية للأمة العربية، منذ احتلال بغداد (٦٥٦هـ)، وعلى مدى أكثر من خمسة قرون، إلى سبات طويل، كاد يمزق أوصالها وينتهي بها إلى الشعور بفقدان شخصيتها، وضياح هويتها إلا إن لغتها ظلت تحتفظ بعناصر القوة والأصالة، بفضل القرآن العظيم، الذي حفظ لها عوامل الصلة بين أبنائها وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى، وظل الإسلام يمثل الآصرة القوية بين شعوب الامم الاسلامية المختلفة.

وقد وصلت أوضاع الأمة العربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى حالة من التمزق، كادت تفقد ابناءها كل أمل بعودة الصورة المشرقة إلى ما كانت عليه أيام عزها وامتعتها.

غير أن العديد من الأحداث السياسية والعوامل الفكرية ولأسباب العلمية، منذ بداية القرن التاسع عشر، كانت تشير إلى حالة من التملل، الذي انتهى في منتصف ذلك القرن إلى يقظة أدبية وفكرية وسياسية، ما لبثت أن حققت لها الكثير مما كان ينشده ابناءؤها على مدى عدة قرون، إلا إن هذه النهضة كانت وثيدة الحركة، ولكنها ما لبثت أن أتت أكلها في نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل ممن قيضه الله من ابناء الأمة من المصلحين، والأدباء المفكرين، حتى وجدنا صورة الأدب بخاصة، تتميز تميزاً ملحوظاً عما كانت عليه في بداية ذلكم القرن.

ولعل ما لاحفي افق الأمة من عوامل النهضة الادبية، كان يشكل مبادرة واضحة في تغير صورة الادب إلى حالة افضل بكثير مما كانت عليه في بداية القرن الماضي.

ويؤكد بعض الدارسين على تأثير حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، إذ يرى هؤلاء أن بعض ما حققه غزو هذا القائد الفرنسي، كان إيجابياً لا يخطر على بال، فقد حقق العديد من الاصلاحات التي لم تكن هذه لحملته التي لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ظهرت بوادرها بدخول مظاهر المدينة الحديثة في مصر، كإنشاء المسارح وبناء المدارس، وإقامة المصانع ، وتأسيس الجرائد وغيرها، في حين كانت

الأقطار العربية الأخرى تعيش وقتئذ حالة من التردّي، سببتها هزائم العثمانيين أمام خصومهم الذين تألبوا عليهم ، ولم يكن في قدرة المصريين أن يحققوا بعض مظاهر المدنية، ويشاهدوا عن كتب، انتشار المراسد والمكتبات وأماكن البحث وغيرها، والتي فتحت أذهانهم ، وحررت عقولهم ونبهتهم الى واقعهم المتردي الذي كانوا يعيشون في ظله.

والحق أن الكثير من المكاسب التي تحققت لآبناء وادي النيل جراء احتلال نابليون لبلادهم، قد انتهى إلى نتائج إيجابية، فالمجتمع العلمي المصري الذي تأسس في نفس السنة التي دخل فيها هذا الغازي الفرنسي، قد حقق برامج علمية وتطبيقية أتت أكلها نتائج إيجابية، إذ اهتم هذا المجمع بالأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية والكيميائية، وعني بالعلوم التطبيقية من طبيعيات واقتصاد ورياضيات، كما عني بالآداب والفنون، وكان من النتائج غير المباشرة وخصوصاً بعد ما صار محمد علي حاكماً لمصر، تعدو وقد تسلحوا بما تعلموه واتقنوه، ويهمننا من هذا على الخصوص أثرهم في الترجمة والتأليف والذي أدى إلى إحياء اللغة وآدابها لأن هؤلاء المبعوثين قد توسعت مداركهم وأيقنوا أن لا سبيل إلى تقدم الأمة إلا بإحياء تراثها اللغوي والأدبي والتاريخي والفكري والعلمي.

وكان من أبرز من لمعت اسماءهم في سماء الترجمة، رفاة الطهطاوي الذي كان من أوائل المبعوثين إلى فرنسا، التي قضى فيها ست سنوات يدرس ويتعلم وتساعدته على ذلك ذكاء متوقد وحس متوثب وحرص على حب الوطن، وتوزعت اهتماماته على كل ألوان المعرفة من اهتمام بالتاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب والقانون، وقد اتقن اللغة الفرنسية اتقاناً لا مثيل له عند غيره وأسهم في ترسيخ كل هذه الاهتمامات، العديد من المناصب التي شغلها، والتي نتجت بفتح (مدرسة اللسان) التي لم يقتصر فيها على تدريس الفرنسية فحسب، بل كذلك التركية والفارسية والإيطالية والانكليزية، إضافة إلى الشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية والتاريخ والجغرافية، وكان حصيلة وكان حصيلة ذلك ترجمة الكثير من الأدب والشعر الفرنسي، وتأليف كتب الآداب والنقد العربي.

وقد اقتضى عنصر الترجمة، تأسيس المطبعة لطبع ما يترجم ويؤلف وينشر والواقع أن ما طبع بالعربية لأول مرة لم يكن في مصر بالذات ولم يتحقق بفضل مطبعة نابليون التي اشتراها المصريون، لأن أول مطبعة عربية قد وجدت في إيطاليا وأول كتاب عربي كان قد طبع بالاستانة عام ١٧٢٨<sup>(١)</sup> كما سبق السوريون غيرهم في تأسيس أول مطبعة سنة ١٧٠٦ أما أول مطبعة تتأسس في مصر فهي مطبعة بولاق التي اشتراها محمد علي حينما صار والياً على مصر عام ١٨٢٢.

وتولى تأسيس المطابع في مصر وسوريا ولبنان فتتأسس مطبعة في بيروت عام ١٨٣٤ ومطبعة الالباء اليسوعيين عام ١٩٤٨ م<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن لشيوع الطباعة تأثيراً شديداً في نشر الوعي الأدبي والعلمي والفكري، عموماً وفي تحقيق عصر الاهتمام بالتراث، بما يحقق منه ويطلع ويعمم على الناس، وقد تحقق بفضل المطبعة إنشاء الصحف. وأول عهد مصر بها كان على أيام نابليون، إذ أنشأ صحيفتين فرنسيتين، أما أول صحيفة فقد أنشئت في مصر عام ١٨٢٢ وهي سنة تأسيس مطبعة بولاق، وأنشئت بعد ذلك صحيفة أخرى عربية، وهي جريدة الوقائع عام ١٨٢٨ ثم تلا ذلك إنشاء الصحف على عهد الخديوي إسماعيل، ومن آثار الطباعة أيضاً شيوع التأليف وخصوصاً الكتب العربية والدينية وإحياء المخطوطات المختلفة وتعميمها على مختلف طبقات الشعب بعد أن كانت مقتصرة على الموسرين من الناس، وأول مكتبة فتحت أبوابها لعموم الشعب، هي دار الكتب المصرية التي ارتبطت بمطبعة بولاق والتي لا تزال تحتفظ بكنوز المخطوطات والمطبوعات.

كل تلك المظاهر كانت قبل عهد الخديوي إسماعيل، وهو عنصر كان يتقدم بالأدب والشعر بخطى وثيدة، حتى أن كان عهد إسماعيل، قيض لمصر أن تخطوا خطوات أوسع وأسرع في ميدان الأدب والشعر والثقافة: فقد أمد التعليم بنسج من الحيوية الصادقة، فأنشأ المدارس واستمر في رفد المبعثات بكل ما تحتاجه مصر

---

(١) ينظر: في الأدب العربي الحديث/ عمر دسوقي ١/ ٥١.

(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٤.

إلى عهده في حياتها الثقافية والعلمية، وإنشأ مدرسة الحقوق، وأسس علي مبارك على عهده دار العلوم عام ١٨٧١، وعُيّنت هذه الدار ولا تزال، باللغة والادب والدين وتأسست مدارس للبنات، وأقيمت دار الكتب المصرية، وتأسست الجمعيات العلمية، وقام المجمع العلمي.

أما الصحافة على عهده فقد واكبت تطور الطباعة، ونمو المكتبات واتساع التعليم والثقافة ويعزى نشاط الصحافة في ميداني الادب والسياسة إلى عبد الله النديم الذي كان يعكس وجه مصر الوطني والسياسي الخاص.

وفي عهد إسماعيل نشطت الطباعة، وما تؤول إليه من طبع كتب التراث، فعلى عهده طبعت أمهات الكتب كالأغاني والمثل السائر وتاريخ ابن خلدون ومقدمته والعقد الفريد وفقه اللغة للثعالبي ووفيات الاعيان واحياء علوم الدين وتفسير الرازي والبخاري ونفح الطيب وقانون ابن سينا في الطب.

ولم تكن الحياة الادبية في سوريا في مطلع القرن التاسع عشر احسن حالاً مما كانت عليه في مصر وكان الشعر لا يتسع في موضوعاته لاكثر من المدائح والمراثي وشعر المناسبات المشحونة بالملق والرياء، والبعيدة عن الصدق.

وهكذا ينحصر الشعر في نطاق ضيق، سواء في موضوعاته أو أساليبه أو أفكاره ولعل ضعف الثقافة وجهل الولاة وانشغال الناس بأمورهم الخاصة، ومشاكلهم الكثيرة، الكثيرة، كان كفيلاً بأن يجعل من الشعر والادب بضاعة رخيصة، وتكاد اليقظة الأدبية والفكرية التي تحققت في مصر تتكرر في صورة مماثلة في سوريا، فإذا كان قد قيض لمصر العديد من العوامل التي أثرت في يقظتها وتقدمت بها على نحو أفضل وأعظم من قبل، فقد تهيأ لسوريا من العوامل مثلما توفر لمصر، وإذا كان الخديوي إسماعيل قد أسهم إسهاماً فاعلاً في تقدم الحركة الأدبية والفكرية والعلمية في مصر، فقد كان مدحه باشا في سوريا يسهم الاسهام نفسه في هذه الحركة، وإذا كان تطور الحركة الادبية في مصر قد اقترن بتطور الفكر الديني والتحرر السياسي، وتهيأ له أمثال الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني ورفاعة الطهطاوي وغيرهم، فقد اقترن تطور الحركة الفكرية والادبية في سوريا بالنهوض الديني والتحرر السياسي أيضاً وتهيأ له رجال من أمثال عبد الرحمن الكواكبي واحمد فارس الشدياق

واليازجي والشيخ جمال الدين الافغاني أيضاً، يضاف إلى هذا، حركة تحرر دينية ترجع إلى أصول السلف الصالح، يتزعمها محمد بن عبد الوهاب، وما كان لها من أثر في تطور الفكر الديني.

وكما تم لمصر أن تنمو فيها حركة الادب والثقافة والعلم والفكر بوساطة البعثات، فقد تم لسوريا مثل ذلك بوساطة البعثات أيضاً.

وقد كانت سوريا سباقة في مجال الطباعة، إذ كان (السوريون أسبق المشاركة إلى الطبع بالأحرف العربية، واسبق المدن إلى هذا الفضل حلب)<sup>(٣)</sup> وتوالى في سوريا بعد ذلك، تأسيس المطابع، فكانت المطبعة الثانية في الشام عام ١٨٥٥، وتلتها المطبعة المارونية في حلب عام ١٨٥٧م، وأخرى في دمشق عام ١٨٦٤، وتلى ذلك عدة مطابع في دمشق وحلب وغيرها من المدن السورية<sup>(٤)</sup> أما في لبنان وفي القدس، فقد فاق عدد المطابع ما كان موجوداً في سوريا ومصر إذ بلغ عددها في القدس، (٢٢) مطبعة وفي بيروت (١٧) مطبعة<sup>(٥)</sup>.

وعلى أثر تأسيس المطابع في سوريا نشطت الصحافة، فقد أصدر رزق الله حسون الحلبي في استنبول عام ١٨٥٥ اول جريدة له، وتبعه اسكندر شلهوب الدمشقي فأصدر عام ١٨٥٧، صحيفة السلطنة في استنبول أيضاً، وفي عام ١٨٧٧ أصدر جبرائيل الدلال جريدة الصدى في باريس.

ثم توالى بعد ذلك انشاء الصحف من قبل الصحفيين السوريين في سوريا نفسها، فصدرت جريدة الشهباء في حلب واشترك في تحريرها عبد الرحمن الكواكبي وهاشم العطار، ثم أصدر الكواكبي بعد ذلك جريدة الشهباء التي عطلت بسبب طبيعتها الثورية، وفي دمشق صدرت جريدة (سوريا) عام ١٨٦٥، ثم جريدة دمشق لاحمد عزة العابد عام ١٨٧٨ ثم مرآة الاخلاق لسليم وحنا عنجوري عام ١٨٨٦.

---

(٣) تاريخ اداب اللغة العربية/ جرجي زيدان ٤ / ٤٤.

(٤) المرجع السابق/ ٢٠.

(٥) ينظر: فنون الادب المعاصر في سوريا/ عمر الدقاق/ ١٦.

أما رائد الصحافة العربية الاول اديب اسحاق، فقد انطلق إلى خارج سوريا (ليكون أحد رواد الصحافة الحرة)<sup>(٦)</sup> بعد أن ضاقت أحوال بلده عن حرية القول، فأسهم في العمل الصحفي في بيروت والقاهرة والاسكندرية وباريس.

كما رحل عن حلب عبد الرحمن الكواكبي للسبب نفسه (واستأنف نشاطه الفكري على صفحات (المؤيد)، وأتيح له في ذلك المناخ المواتي نشر كتابيه الجليلين (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) ، كذلك لاذ محمد كرد علي بارض الكنانة حيث أصدر مجلة (المقتبس) وفعل ذلك سليم الحموي وسليم عنجوري وتوفيق حامد واسكندر شلهوب الابن وعبد القادر المغربي وغيرهم)<sup>(٧)</sup> .

ولعل رحيل هذه الصفوة من رواد الصحافة السورية إلى مصر بسبب ضيق الحرية الصحافية في بلدهم، كان واحداً من الأسباب التي غدت الصحافة المصرية، وأمدتها بنسخ شديد من الاصاله والقوة.

وإذا كان عامل الطباعة والصحافة قد لعب دوراً فاعلاً في حركة النهضة الادبية في كل من مصر وسوريا، فإنه لم يفعل الفعل نفسه في العراق: فعلى الرغم من أن الصحافة العربية في هذا القطر قد وجدت في وقت مبكر، إذ إن (أول جريدة عراقية بالعربية وهي الزوراء صدرت عام ١٨٦٩ في زمن مدحت باشا)<sup>(٨)</sup> على الرغم من هذا الوقت المبكر، إلا أن صحيفة واحدة لا يمكن أن تؤدي وظيفتها في حركة النهضة الادبية والفكرية، إذ أن الشعب في العراق لم يكن وقتئذ مهياً لاستقبال الصحافة، بسبب من كثره مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية، ولاتطابق الجهل على الاغلبية العظمى من سكانه، ومع هذا فإن جريدة الزوراء هذه كانت (تعتبر بحق الحجر الاساس في خلق الصحافة العراقية الحرة، وكان العراق انئذ محروماً من الصحافة)<sup>(٩)</sup> وتكمن أهمية هذه الصحيفة أنها ارتبطت بأول مطبعة تأسست في العراق، وهي مطبعة الزوراء التي جلبها الوالي مدحت باشا من فرنسا في السنة التي

---

(٦) المرجع نفسه / ١٧ .

(٧) نفسه / ١٩ .

(٨) موجز تاريخ الصحافة في العراق: فائق بطي / ٣ .

(٩) الزوراء - نشوؤها وتطورها: منير بكر التكريتي .

أسس فيها الزوراء نفسها (ثم أصدر العثمانيون بعد ذلك جريدة الموصل عام ١٨٨٥ واحتجبت عام ١٩١٤)<sup>(١٠)</sup>.

ويبدو إن العثمانيين لم يرق لهم صدور الصحف بسبب من الدور التحرري يمكن أن تؤديه لشعوب الأمم التي كانت تقع تحت سيطرتها. على أن تتابع صدور الصحف العربية في العراق، قد استمر بعد إعلان الدستور، فقد صدرت جريدة بغداد عام ١٩٠٩ وترأس تحرير القسم العربي فيها الشاعر معروف الرصافي، كما صدرت مجموعة من الصحف في السنة نفسها في بغداد، وهي الرقيب وبين النهرين والارشاد والانقلاب والتعاون والروضة والحقيقة وصدى بابل والزهور والعراق والرشاد، وفي عام ١٩١٠ صدرت صحف الرياض والظريف والفرات والرصافة وغيرها، ثم صدرت في عام ١٩١١ (١٥) صحيفة وفي عام ١٩١٢ صدرت ست صحف وتتابع مع صدور الصحف صدور مجموعة (من المجلات الأدبية والاجتماعية والتاريخية والفكرية وفي مقدمتها مجلة لغة العرب لانستاس ماري الكرمللي وشمس المعارف لابراهيم صالح شكر)<sup>(١١)</sup> والواقع ان تأثير الصحف في هذه الفترة كان محدوداً لاسباب عديدة منها ما يتعلق بواقعها الاقتصادي والفني، ومنها ما يتصل بالجمهور الذي لم يكن وقتئذ يعي بالصحافة لجهله وبسبب مشاكله المختلفة الأخرى.

إلا إن تأثير الصحافة صار مجدياً، منذ فترة الحكم الشعبي لأن (الصحف في هذه الفترة تميزت بنشر الوعي الوطني والقومي والفكري. ومن الذين أسهموا في الكتابة إبراهيم صالح شكر وإبراهيم حلمي العمر وانستاس الكرمللي ومعروف الرصافي وباقر الشبيبي وروفائيل بطي وعشرات من أدباء وكتاب البلاد العربية)<sup>(١٢)</sup>. ويفهم من هذا أن فاعلية الصحافة في العراق لم تأخذ دورها وتؤدي وظيفتها الأدبية والفكرية، إلا بعد فترة الحكم الشعبي وهي بلا ريب فترة متأخرة إذا قيست

---

(١٠) موجز تاريخ الصحافة في العراق / ٤.

(١١) المرجع السابق، ٦ - ٧.

(١٢) موجز تاريخ الصحافة في العراق / ١٢.

بمثيلاتها في مصر وسوريا ولبنان، خصوصاً إذا علمنا إن الذين أسهمت أقلامهم في هذه الصحف كان معظمهم من الشعراء والادباء والكتاب.

ولعل ما كانت تقدمه الصحافة العربية في بعض الأقطار العربية وفي مصر على الخصوص من إسهام في النهضة الادبية في العراق، كان يفوق ما كانت تقدمه الصحافة العراقية بسبب نهضة الصحافة في هذه الأقطار كماً ونوعاً، وبسبب الظروف المواتية التي رافقت مؤسسة الصحافة آنئذ، إذ كانت مصر على الخصوص تحتضن الصحفيين العرب من كل قطر، بسبب توفر الحرية فيها أكثر من أي قطر آخر، وهذا ما حدا ببعضهم إلى أن يبعث بانتاجه الادبي إلى صحف مصر التي كانت تستقبل كتاباتهم، في حين كانت صحف العراق آنئذ، تضيق بأقلامهم إلى حد بعيد.

ومهما يكن من أمر عامل الصحافة العراقية ودورها في تعميم الثقافة ونشرها، فإنها لم تقم بدورها الفاعل كما قامت في مصر وغيرها من الأقطار العربية، ولكن تلك البذرة التي نمت نمواً بطيئاً وقتئذ، قد صارت نباتاً غزاً فيما بعد، وفتحت أذرعها لكل الواعين والمتقنين حين أتيحت الظروف التي أسهمت في تطورها حتى صارت من أشد العوامل تأثيراً، ويجدر بالملاحظة، أن أهمية الصحافة، لم تقف عند حدود واجبها السياسي والنضالي وحسب، بل تعدت ذلك إلى بحث الوعي الفكري واحتضانه الجانب الثقافي، فتعهدت الشعراء والادباء بالعناية والرعاية وذلك بنشر انتاجهم من الشعر والقصة والمقالة وغير ذلك مما أسهم في حياة الأمة الثقافية والادبية، إضافة إلى ما ترعاه من مقالات سياسية واجتماعية وغيرها.

وعلى العموم، فإن عنصر الصحافة كان واحداً من العوامل المؤثرة في نشاط الحركة الثقافية، خصوصاً إن الذين أسهموا فيها كانوا يكتبون في كل ميدان فلم يقتصر الشاعر منهم على نظم القصائد ولا الناقد على توجيه مقالاته النقدية والادبية، بل كان الواحد منهم شاعراً وناقداً ومفكراً ومصلحاً اجتماعياً أو مناضلاً سياسياً أو ثائراً دينياً.

كما يجدر بالملاحظة أيضاً، أن عنصر الصحافة كان يجسد تطبيقاً لمفهوم الوحدة، إذ لم تقتصر الصحف المصرية أو السورية أو العراقية على نشر ما يصدر

في أقطارها حسب، فالصحفيون السوريون كانوا عنصراً فاعلاً في الصحافة المصرية فأديب أسحق وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي وغيرهم كانوا يصدرون صحفهم في مصر، وكانت الصحف المصرية تنشر إنتاج الشعراء والكتاب العراقيين والسوريين واللبنانيين، ولعل السبب في هذا انمصر كانت منذ عهد محمد علي الذي استقل بها عن العثمانيين بعيدة عن الرقابة التي كانت مفروضة على الأقطار العربية الأخرى. ومن هنا تجد العشرات من الصحفيين والادباء والشعراء والكتاب ينزحون إلى أرض الكنانة، ويمارسون نشر انتاجهم بكل حرية، بل لقد كان شعراء وأدباء الاقطار العربية المختلفة يبعثون بانتاجهم الأدبي إلى الصحف المصرية، من ذلك ما كان ينشر للرصافي والزهاوي، أو ما كان ينشره الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي في تلك الصحف، التي ما أن تصل إلى العراق حتى يتلقفها القراء، ويقبلون على قراءتها.

ولعل من المفيد أن ننوه بما كان يطبع من دواوين وكتب للعراقيين والسوريين في مطابع مصر، حيث كانت ظروف الطبع في أرض الكنانة أفضل مما كانت عليه في الأقطار العربية الأخرى.

إن العوامل التي ذكرت، والتي كان تأثيرها مباشراً في نهضة الحياة الأدبية منذ نهاية القرن التاسع عشر، لم تقتصر على ما ذكرنا وحسب، فقد كانت هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عنها، ومنها اليقظة السياسية والوثبة الدينية. فقد تأثر مجموعة من شباب الوطن العربي بالثورات السياسية التي تفجرت في أوروبا، وسلكت في دعوتها منهجاً قومياً يقوم على الاعتداء بالمواطنة الصحيحة، وقد كان معظم القائمين على الدعوة القومية العربية شباب عنوا بالادب واتصلوا بالمبادئ الحرة، والأفكار الجديدة. وفي دعواتهم نادوا بحرية الفكر، وطالبوا بوحدة الأمة، وبشروة بسمو المبادئ، فغرسوا في دعوتهم مبادئ الحرية ودعواتها الانسانية. وكانوا يعلنون عن ذلك كله في ما يصدرونه من نشرات أو كرايس صغيرة، وقد التأمت تلك المحاولات في جمعيات سرية تدعو إلى تحرير أقطار الأمة العربية وحريتها ووحدتها. ومن تلك الجمعيات الجمعية القحطانية وجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة والمنندى الادبي وغيرها.

أما العامل الثاني فكان يتمثل في اليقظة الدينية التي تولى مبدئها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهما، كما يتمثل في دعوة محمد بن عبد الوهاب. ويقوم تأثير هذا العمل على الدعوة إلى حرية الانسان وتحرير عقله من القيود التي وقفت بينه وبين انطلاقه، وحرية في التفكير وفي الفعل، كما يقوم على تخليص الدين الاسلامي وتعاليمه مما علق بها من شوائب. ومعنى هذا أن اليقظة الدينية هذه كانت تحاول الربط بين تحرر الأفكار وتحرير الأدب والشعر أيضاً، لما لهذه النشاطات الفكرية من صلة بتحرير العقل الذي يتوقف عليه تحرير النشاط الانساني ودليل ذلك هو أن ما تحرر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده، وقد شمل الحياة العربية كلها، سواء منها النشاط الفكري والادبي أو النشاط الديني والقومي، لأن هذه النشاطات كانت ترتبط بخيط دقيق واحد، هو خيط الحياة الانسانية العربية، فحين خففت جذوة هذه الحياة بفعل الظروف الصعبة التي ألمت بالأمة العربية منذ احتلال بغداد وما بعد ذلك بعدة قرون، ضعف معها احساس الانسان واضطرب تفكيره ووهنت مشاعره. وحين بدأ يستيقظ في القرن التاسع عشر على أثر اتصاله بما كان يجري في العالم الأوربي وفي غيره، كان كل نشاط يتصل به ويتململ في ظل متغيرات ذلك القرن يشكل وحدة واحدة لا تتجزأ، فإذا بنا أمام تحرك ديني يحاول أن يزعزع الارض من تحت أولئك الذين احوالوا الدين وسيلة لحجر عقول الناس وكسب تاييدهم يقيم الدنيا ويقعدها على العثمانيين الذين جعلوا من أصحاب الطرق ودعاة التصوف ظلاً لهم، وإذا به يرى من الحركة محمد بن عبد الوهاب خطراً يتهدد كيانه ويهدد مصيره.

وقد توافق ذلك- زمنياً- مع دعوة التحرر الديني التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني وتلاميذه من أمثال محمد عبده وغيره. كما توافق أيضاً مع دعوة عبد الرحمن الكواكبي في سوريا. وكانت هناك أيضاً يقظة قوية متأثرة بالدعوات القومية التي اشتعل أوارها في أوربا، ويتأثر دعائها من حملة الافكار الحرة والاقلام الجريئة الذين درسوا أو عاشوا ردحا من الزمن في أوربا. وقرأوا وتأثروا بافكار الثورة الفرنسية ومبادئها، كما تأثروا بآراء المفكرين الاتراك الذين دعوا إلى مثل هذه الدعوات أيضاً. فإذا بتلك الروافد وعلى اختلاف مبادئها وتنوع روافدها تنتهي إلى مصب واحد، وإذا

بأفكار الأفغاني ومحمد عبده تتفق مع مبادئ محمد بن عبد الوهاب من حيث المبدأ على الأقل . وأقصد أنها تدعوان إلى ثورة على الواقع الديني المتجمد، وإذا بهذا كله يتفق مع تحرر الانسان وأفكاره في دعوة الكواكبي وأبي الثناء الألوسي ومحمد شكري الألوسي .

وهكذا وعلى غير موعد أو اتفاق، تفوق الأمة من الغفوة، وتلقي عن نفسها أكفان الموت التي كادت تطيح بها، ويستيقظ في آن واحد تقريباً، المصلح الديني والثائر القومي والمفكر الحر، كما يستيقظ معهم الشاعر والكاتب، حتى يبدو أن هناك اتفاقاً بين هذه العناصر المختلفة، والحالة أن هذه الیقظة قد اتفقت عناصرها بفعل الرياح الجديدة، التي هبت من العالم الاوربي المتغير، وبفعل ذلك تأثر بهذه الرياح، مجموعة من الادباء والمفكرين والمجتهدين، قاموا قومة واحدة، حيث تيقظ في نفوسهم شعور متجدد وحماس شديد وتفكير جديد ، ولم تنفع كل أساليب الحكم القائم انئذ في صد الريح العاتية، وإيقاف الثورة الثائرة العارمة، فكانت محاولة البارودي في مجال الشعر تمثل خلاصة ما انتهت إليه محاولات مجموعة من الشعراء في العراق وسوريا ومصر، لم تستطع أن تتشل الشعر من واقعه الفاسد، لكن الذي استطاع ذلك، هو هذا الشاعر الذي اشرنا إليه، بعد أن اجتمعت في شخصه وفي فنه قدرات لم تجتمع لدى احد من أبناء جيله، وبذلك يكون البارودي رائداً حقاً للشعر الحديث.

(مراجع التمهيد)

تاريخ اداب اللغة العربية/ جرجي زيدان مصر ١٩١١

موجز تاريخ الصحافة في العراق/ فائق بطي بغداد ١٩٦١

فنون الادب المعاصر في سوريا/ عمر الدقاق دمشق ١٩٧١

في الادب الحديث ج ١ - ٢/ عمر الدسوقي بيروت ١٩٦٦